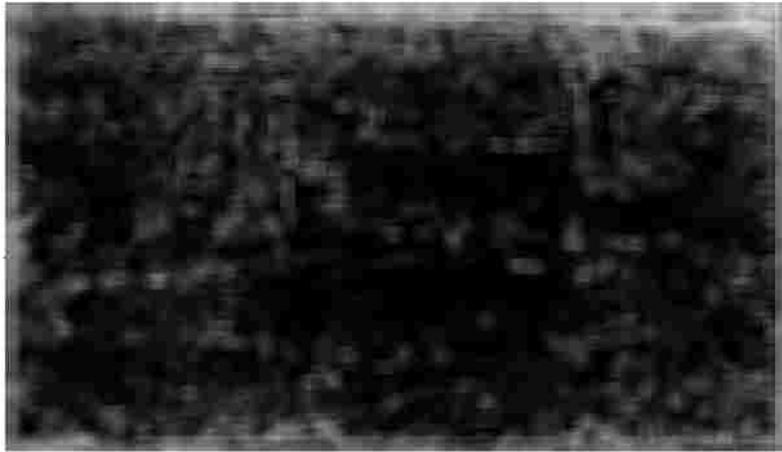


خرائب الشام



مدينة بصرى

فتحنا نقويم البلدان لنرى ما يقوله ابو الفداء عن هذه المدينة التي كانت عاصمة من العواصم الكبيرة ومسقط رأس القائد العربي الذي ليس الارحوان وصار امبراطوراً على مملكة الرومان قبل الاسلام بنحو اربع مئة عام فرأيناهُ يكتبني بقوله " في العزيزي بصرى مدينة كورة حوران وهي مدينة ازليّة بنية بالحجارة السود مسقفة بها وفيها سوق ومنبر وهي من ديار بني فزارة وبني مرة وغيرهم ولها قلعة ذات بناء متين وبساتين وبناه قلعتها ثديه ببناء قلعة دمشق . قال ابن سعيد بصرى قاعدة حوران وهي على اربع مراحل من دمشق " انتهى ما نقله ابو الفداء في كتابه نقويم البلدان . وذكر الزبيدي بصرى في تاج العروس فقال انها بلد بالشام بين دمشق والمدينة اول بلاد الشام فتوحاً قال الشاعر

ولو اعطيت من يبلاد بصرى وقسرين من عروب وعجم

وينسب اليها السيف البصريه وانشد الجوهري للحصين بن الحمام المري

صفايح بصرى اخلفتها قبرنها ومطرذاً من نسج داود احكما

ثم فتحنا الطبري لنرى ما يقوله في فتوح الشام ولو حشاه النساخ بما ليس منه فوجدناه يقول ان بصرى كانت مدينة حصينة جداً في زمن الفتح أهلة بالخلق عامرة بالناس وكان العرب يقصدونها بضائهم وتجارتهم من اقصى اليمن وبلاد الحجاز فاذا كان في ايام الموسم ينصب لطريقها

كرمي يجلس عليه ويجمع الناس اليه يستفيدون من علمه وحكمته وكان صديقاً لابي بكر الصديق . وجدة اليها ابو عبيدة بن الجراح شرحبيل بن حسنة في اربعة آلاف فارس نشبت الحرب بينه وبين اهلها وخرجوا اليه باثني عشر الف فارس من الروم وكادت الدائرة تدور عليه لولا ان قدم له نجده خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن ابي بكر بجيش المسلمين ولامه خالد قائلاً أما علمت ان هذه ميناة الشام والعراق وفيها عساكر الروم وبطارتهم فكيف غررت بنفسك ومن معك من المسلمين . ثم ان بطريق المدينة واسمه روماس خان قومه وامر غلامه بتغر السور ففتحوا فيه باباً خرج منه واتى خالد ا وادخل المسلمين الثغرة وفتح لهم ابواب المدينة فاستولوا عليها - اما الامبراطور العربي المثار اليه آنفاً فاسمه فيليس ذكره ابن خلدون باسم فلفش وقال انه ابن اولياق بن انطونيش ولي سبع سنين وهو اول من تنصر من ملوك الروم . ولم يذكره المسعودي او ذكره باسم يعريس اي ان واحداً من هذين المؤرخين ذكر اسم فيليس والآخر ذكر لقبه واكتنيا بذلك . والمعروف من امر هذا الامبراطور الآن ان اسمه يوليوس فيليس ويلقب بتيليس العربي وهو من اهالي بصرى انتظم في سلك الجيش الروماني وارثي فيه حتى صار قائداً جيوش غرديانس في المواقع التي جرت بين الروم والفرس ثم اغرى الجنود بقتل امبراطورهم فقتلوه ونادوا به امبراطوراً بدلاً منه وكان ذلك سنة ٢٤٤ ليليلاد . فاهتم بامر بصرى مسقط رأسه وجعلها عاصمة واعطاها حقوق العواصم الرومانية . ثم ثارت الجنود عليه فقتل قرب ثرونا سنة ٢٤٩ . وذكر يوسيبوس انه كان مسيحياً واثبت ابرونيوس ذلك وكان له ابن اسمه فيليس ايضاً قتل معه ويلقب فيليس الثاني لان اباة اشركه معه في الملك

واما مدينة بصرى فقدية جداً اقدم من الاسكندرية لان الاسكندر المكديوني وجدها عامرة حصينة لما فتح الشام وبقيت في يد خلفائه من ملوك الشام الى ايام انطيوخس ديونيسيوس فاستولى عليها ملك من ملوك العرب ثم اخذها الامبراطور طراجنس سنة ١٠٥ وبنى فيها المباني الفخيمة واباح لاهلها ان يسموها باسمه وجعلها كرونية رومانية وبقيت سنين كثيرة بعده من اهل المدن الشرقية ومبارة تجار العرب وجعل لها تاريخ خاص مثل تاريخ الاسكندر والتاريخ المسجي والمجري يتبدى من تلك السنة اي سنة ١٠٥ وهو التاريخ البصري المشهور الذي ارتخ به الفرس زماناً طويلاً

اما مجدها السالف وما صارت اليه بعد النسخ فتدل عليها الصورة التي في صدر هذه المقالة حيث ترى العمدة العظيمة ماثلة كأنها تستشهد الزمان على ما كان لها من الجيد والعزة والخرائب منبثة حولها تنسب ما حل بها من الدهر وابنائها . وابلغ من ذلك ووضح وصف

الدكتور يودتر الانكليزي الذي زارها منذ نحو اربعين سنة وكتب عنها ما ترجمته مخلصاً
 "اقت في بصرى ثلاثة ايام. خرائبها كثيرة لا ترى في يوم او يومين محيطها خمسة
 اميال لها سورٌ عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة لا احصن منها في كل بلاد الشام. تبيئتُ
 في هذه المدينة خرائب مشهدين وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور
 والحمامات والسبل والفتوات واقوام النصر وغير ذلك من المباني الكبيرة وهي تدلُّ على ان
 اعالي بصرى كانوا على جانب عظيم من الغنى وحسن الذوق لان بعض هذه المباني يصلح لأن
 تزودان به اعظم عواصم اوربا الان

ولم يكن البحث عن هذه الآثار بالامر السهل لكثرة الانتقاض وتراكمها بعضها فوق بعض.
 صعّدت على جدار لانسخ كتابة يونانية فوقع الجداري ولو لم اثب عنه بسرعة لدفنت تحت حجارته
 كان في بصرى في زمن عزها مئة الف نفس ولما زرتها لم اجد فيها سوى عشرين عائلة
 تسكن بعض الخرائب القديمة قرب القلعة وما بقي من المدينة خراب لا ساكن فيه ، وحول
 المدينة يتابع ومصانع كثيرة يأتيها العرب احياناً يسومون فيها العامهم ويتهبون القوافل التي
 تمر بهم ولم نلج منهم الا باستئجارنا اخا شيخهم دليلاً لنا

كانت بصرى احصن مدن باشان ومقل الرومان شرقي الاردن فست الباقي من سورها
 فوجدت ارتفاعه ٣٠ قدماً وبختمه ١٥ قدماً وفيه ابراج مربعة على ابعاد متساوية . وكان طول
 المدينة داخل السور ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ضواحي كثيرة المباني ويقطع
 المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفيه وشوارع رحبة تقطعه
 على زوايا قائمة . ما اكبر الفرق بينها وبين الشوارع التي ابقاها العرب بعد الفتح بين يوتهم . تلك
 رحبة مستقيمة تحثها المباني الفخيمة وهذه ضيقة متعوجة تحيط بها الاكواخ الحفيرة منتزعة
 من المباني القديمة . نجد قصرًا رومانيًا بديعاً او هيكلًا يونانيًا نفيساً وبلدقو دكا كبريت
 العرب الحفيرة وقد مد الخراب مطاره على التريقين

ولقد يتعب القارئ اذا اردت ان احص له كل ما رأته هناك كما تعبت انا من البحث عنه
 لاني رأيت ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل
 والكنائس والقبور والمدارج . وركام الانتقاض تدل على ما مرَّ بهذه المدينة من العبر وما تقلب
 عليها من الازمان كما تدل طبقات الارض على العصور الجيولوجية . هناك ترى بيوت الاقدمين
 التي كانت ابوابها وسقوفها من الحجر وكان يسكنها الرثائيون قبل عبيد ابراهيم الخليل الى بلاد
 الشام وفوقها هياكل اليونان والرومان وكنائس المسيحيين . رأيت كتابة على حجر يقال فيها

ان الهيكل جعل كنيسة على اسم القديس يوحنا ودخلت هذا الهيكل او هذه الكنيسة فرأيت
انه جعل جامعاً وكتبت عليه كلمة الشهادة

من اول الجاني التي دخلتها القلعة مررت في طريق اليها بقوس النصر التي اقيمت للقائد
فيلبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى . والقلعة في جنوبي المدينة خارج
اسوارها كبيرة جداً ولا تزال جدرانها وابراجها والخندق الذي حولها سليمة واما داخلها فخراب
يباب في اسفلها صهاريج كبيرة ومخازن وفوقها غرف كثيرة وفي وسطها مشهد قديم قائم على عمد
وقناطر يرى الجالس في المدينة وما حولها من الارياض . والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧٠
قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية والظاهر انه بني لتسلية الجنود
الرومانية حين كانت بصرى مفرم . وفي القلعة برج شاهق صعدت الى قنته ورأيت منه الطرق
التي كانت متفرعة من بصرى وتمتد الى كل المدن المجاورة في خطوط مستقيمة واحدة تصل
الى اذرع وواحدة الى السويداء ودمشق وواحدة تحري في الشمال الغربي بين جبال باشان
وواحدة الى القرية وواحدة الى قلعة صلقة . والدلائل كلها تدل على ان البلاد حول بصرى
الى ما يمتد اليه النظر بالتكويب كانت عامرة آهلة بالسكان كثيرة المدن والمصانع في اطيب
بقاع الارض ماء وهواء وهي الآن قفر بلقع

ثم اخذنا الدليل الى كنيسة كبيرة وهي كنيسة بصرى المشهورة في التاريخ فرأيتها مبنية
في شكل صليب يوناني وفرق بابها كتابة يقال فيها ان يوليانيوس رئيس اساقفة بصرى بناها
سنة ٥١٣ تذكراً للشهداء سرجيوس وبأخس وليونتيوس . وقال الدليل انها كنيسة راهب
بحيرة النسطوري المشهور في كتب العرب . وعلى مقربة من الكنيسة جامع كبير يقال ان الخليفة
عمر بن الخطاب بناه سقفه قائم على اعمدة كبيرة بينها سبعة عشر عموداً من الرخام الابيض وعلى
اثنين منها كتابة تدل على ان اصلهما من كنيسة ولعلهما كانا قبل انكنيسة في جامع يوناني
وسرنا الى الباب الغربي في طرف الشارع الكبير فوجدناه قنطرة رومانية واسعة مزخرفة
القائمتين وامامها بيت الديدبان بناؤه مثل بناؤها وقت هناك انظر من هذا الباب وارى ركام
الانقاض والجدران المتصدعة ووراءها قوس النصر كانها اقيمت تذكراً للدمار لا للنصر وحول
المدينة قفر بلقع لم ارم ما يماثله تحلاً الا حول تدمر " انتهى كلام الدكتور بورتو
وكان شرقي بصرى حوض للماء طوله ٣٩٠ قدماً في مثلها عرضاً وعمقه ١٥ قدماً والى
جنوبها حوض آخر طوله ٥٣٠ قدماً وعرضه ٤٢٠ قدماً وعمقه ٢٠ قدماً والى غربها حوض
أكبر منهما طوله ٥٦٠ قدماً وهذه الحياض مملئة الآن بالردم والانقاض

هذا ما بقي من عاصمة كورة الرومان في بلاد العرب والزلزلة التي حدثت في اواسط القرن الثاني عشر اليه الطويل في تحريب مبانيها اما ضحيتها فابتداءً من حين خربت البلاد التي حولها

ماهية الفلسفة

كان علماء اوربا في الثلث الاخير من القرن الماضي يكرمون الفلسفة كأنها ربة العلوم كلها وكانت دور العلم في ألمانيا قاعدة العلوم العليا غاصّة بالطلبة يسمعون اقوال فلاسفتها وقلوبها كأنها وحي مُنزل . وكثير البحث الفلسفي في كل مكان واصحابه يحاولون حل المسائل الكبرى مسائل الحياة . واشتاق الناس الى كشف الغوامض واشتدّ بهم هذا الشوق حتى لم يصبوا على البحث في امور انكون بالتأني فاكتنوا بالاوضاع الفلسفية الباحثة عمّا وراء الطبيعة ويتضح ما كان للفلسفة من السطوة على عقول الناس في ذلك العصر من قول ثردرك وشر الذي قال ان كل قوى الشبان كانت تصرف الى حل المسائل المويضة ولم يكن الشاب يحسب انه بلغ اشدّه ما لم يفهم حقيقة حرية الارادة والقضاء والقدر وإلا فلا يحق له ان يتزوج ذلك العصر كان عصر الفلسفة الذهبي لكنه كان حاملاً في اردائه بزور انحلاله . فان الفلاسفة انكبار مثل نيتشي وشلنج وهيجل حدّوا الفلسفة بانها تركيب تصوّري للكون من مبادئ اولية اكتشفتها بعض العقول الذكيّة . وجرّوا مجرى الفيلسوف سبنوزا في استنتاج نتائج عدوها لازمة من اوليات خبيراً ضرورية وانغمضوا عيونهم عن شهادة الحواس وحسبوا انهم يستطيعون تعليل المحسوسات بانها نتائج لازمة عن بعض المبادئ الاولية . وقالوا ان لا قيمة للاختبار من هذا القبيل لان غاية ما يستفاد منه تحقيق الاستدلال الفلسفي بل ان شائع انكر عليه هذه الفائدة وقال ان الاستنتاج العقلي لا يحتاج اثباته الى اختبار مادي لانه ثابت لذاته فان كان الاختبار لا يتطبق عليه فالخطأ في الاختبار لا فيه . وهيجل لم يتطرق الى هذا الحد في انكاره فائدة الاختبار لكن اعتماده الاكبر كان على الاستدلال العقلي . وكان اولئك الفلاسفة يجهلون ان لا حدّ لما يدركه العقل فهو يدرك الاوليات كلها بالبدهة ثم يعلم ما بيني عليها بالاستدلال المنطقي وعلى ذلك بنى نيتشي وشلنج وهيجل فلسفتهم فحامت بناء عظيمًا فخيمًا ولكن لا اساس لها في الارض وما لا اساس له في الارض يتلاشى في الهواء وبينما كان الفلاسفة الالمانيون واتباعهم يبرهنون بالاقية المنطقية ما يجب ان يكونه العالم اخذ علماء الطبيعة يحاولون ان يعرفوا ما هو العالم واذا بصفير الآلة البخارية يقظ اهل